الفصل الثالث

مريم البتول

تفرّدت مريم البتول بشمائل لم يدركها أحد غيرها، في نظر الدين الاسلامي. فلقد ذكرها القرآن باسمها وحدها من بين النساء. ولدت معصومة من أذى الشيطان الذي يطعن كل مولود في جنبه، وقُرّبت نذيرة لله حين لا ينذر الا الذكور، ورزقت في المحراب من جنى الفردوس، وبشرها الملاك بأعجوبة الاعاجيب اذ تجسدت في أحشائها كلمة الله وروحه، عيسى، وهي البتول التي لم تقترن بزوج، وسلمت عليها الملائكة مرددة على الاجيال في الاسلام: «يا مريم ان الله اصطفاك على نساء العالمين»، وآواها ربها الى «ربوة ذات قرار ومعين»، قد تكون الجنة، ويكون في ذلك انتقالها الى النعيم.

هذا من القرآن، وأما الحديث فيقول عنها انها كانت سيدة نساء زمانها، سوّدها الله على امائه جميعاً، ولقد اصبحت في الجنة ايضاً سيدة نساء العالمين.

ومضى بعد ذلك علماء الاسلام يرددون اعجابهم، فقالوا فيها أجمل ما يقال في امرأة، وعيّد لها الشعب الاسلامي احياناً وصام وصلى. فهي بين العالمين الاسلامي والمسيحي نقطة الالتقاء الكبير.

مختصر سيرة مريم وعيسى

ولما بلغت مريم ابنة عمران سبع عشرة سنة بعث الله عز وجل جبريل فنفخ فيها الروح فحملت بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام وولدت بقرية يقال لها بيت لحم على اميال من بيت المقدس. ولدته في يوم الاربعاء لاربع وعشرين ليلة من كانون الاول . وكان من امره ما ذكره الله في كتابه واتضح على لسان نبيه محمد صلعم . وقد زعمت النصارى ان ايشوع اي المسيح الناصري أقام على دين من سلف من قومه يقرأ التوراة والكتب السالفة في مدينة طبرية من بلاد الاردن في كنيسة يقال لها المدرس ثلاثين سنة ، وقيل تسعاً وعشرين سنة ، وانه في بعض الايام كان يقرأ في سفر أشعيا اذ نظر في السفر الى كتاب من نور فيه : انت بني وخالصتي اصطفيتك لنفسي[1] فاطبق السفر ودفعه الى خادم الكنيسة وخرج وهو يقول : الآن تمت كلمة الله في ابن البشر[2] .

وقد قيل ان المسيح كان بقرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون من اعمال الاردن وبذلك سميت النصرانية. ورأيت في هذا القرن كنيسة تعظمها النصارى وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت سخين كالرب تتبرك به النصارى ، وان المسيح مر ببحيرة طبرية وعليها اناس من الصيادين وهم بنو زبدا واثنا عشر من القصارين فدعاهم الى الله وقال : اتبعوني تصيدون البشر ، فاتبعه ثلاثة من الصيادين وهم بنو زبدا واثنا عشر من القصارين . وقد ذُكر متى ويوحنا ومارقس ولوقا وهم الحواريون الاربعة الذين تلقوا الانجيل[3] فألفوا

---

١) اشعيا ، ٦١ : ١ — ٣ .

٢) قابل بالانجيل : « ودخل كعادته المجمع يوم السبت فدفع اليه سفر اشعيا النبي فلما فتح السفر وجد الموضع المكتوب فيه : ان روح الرب علي ولذلك مسحني وارسلني . . . ثم طوى السفر ودفعه الى الخادم . . . فجعل يقول لهم : اليوم تمت هذه الكتابة . . . » ، لوقا ، ٤ : ١٦ — ٢١ .

٣) كان متى ويوحنا واحدهما من الرسل او الحواريين ، اما مارقس فكان تلميذاً لبطرس الذي هو من الحواريين ، واما لوقا فكان تلميذاً لبولس . وقد كتب هؤلاء الاربعة النصوص الانجيلية بوحي من الله .

خبر عيسى عليه السلام وما كان من امره وخبر مولده وكيف عمّه يحيى بن زكريا وهو يحيى المعمداني في بحيرة طبرية ويجري الى البحيرة المنتنة ، وما فعل من الاعاجيب واتى من المعجزات وما ناله من اليهود الى أن رفعه الله عز وجل اليه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وفي الانجيل خطب طويل في أمر المسيح ومريم ويوسف النجار أعرضنا عن ذلك لان الله عز وجل لم يخبر بشيء ولا اخبر به نبيه محمد صلعم[٤] .

البشارة والميلاد في الصحراء

كانت مريم ويوسف بن يعقوب ابن عمها يليان خدمة الكنيسة فكانت مريم اذ نفد ماؤها فيما ذُكر وما يوسف ، أخذ كل واحد منهما قلّته فانطلق الى المغارة التي فيها الماء الذي يستعذبانه فيملأ قلته ثم يرجعان الى الكنيسة . فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل وكان اطول يوم في السنة واشدها حرًا ، نفد ماؤها فقالت : يا يوسف ألا تذهب بنا نستقي ، قال : ان عندي لفضلًا من ماء اكتفي به يومي هذا الى غد . قالت : لكني والله ما عندي ماء . فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فتجد جبريل قد مثّله الله لها بشرًا سويًا . فقال لها : يا مريم ان الله بعثني لأهب لك غلامًا زكيًا ، قالت : اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيًا ، وهي تحسبه رجلًا من بني آدم . فقال : انما انا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا . قالت : أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيًا . قال : كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منّا ، وكان امرًا مقضيًا ؛ أي ان الله قد قضى ان ذلك كائن . فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله . فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها وملأت قلتها . . .[٥]

---

٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ١ : ١٢٢-١٢٤ .

٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٢٣-٧٢٤ لم تذكر الاناجيل الموحاة بشارة العذراء مريم وهي تستقي الماء ، ولكن ذلك ما ذكرته الاناجيل الموضوعة ، انجيل يعقوب الموضوع ، ١١ ؛ انجيل متى المزعوم ، ٩ ؛ وقد ردد الفن المسيحي صداه في القرون الوسطى ، حتى اصبح تقليدًا شعبيًا عرفه المؤرخون والرسامون في الاسلام .

لما ارسل الله عز وجل جبريل الى مريم تمثل لها بشراً سوياً ، فقالت: اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً،ثم نفخ في جيبها حتى وصلت النفخة الى الرحم واشتملت على عيسى . قال : وكان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذي عند جبل الزيتون ، وكان ذلك المسجد يومئذ من اعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان ، وكان لخدمته فضل عظيم فرغبا في ذلك. فكانا يليان معالجته بانفسهما وتجميره وكناسته وطهوره وكل عمل يُعمل فيه. فكان لا يُعلم من أهل زمانها أحد اشد اجتهاداً وعبادة منها، وكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف. فلما رأى الذي بها استعظمه وعظم عليه وفظع به ولم يدر على ما يضع امرها ، فاذا اراد أن يتهمها ذكر صلاحها وأنها لم تغب عنه ساعة قط ، واذا اراد يبرئها رأى الذي بها ، فلما اشتد ذلك عليه كلّمها فكان اول كلامه لها أن قال لها : إنه قد وقع من امرك شيء قد حرصت على أن أميته واكتمه فغلبني ذلك فرأيت ان الكلام فيه اشفى لصدري . قالت فقل قولاً جميلاً . قال : ما كنت لاقول الا ذلك ، فحدثيني هل ينبت زرع بغير بذر ؟ قالت: نعم . قال : فهل تنبت شجرة بغير غيث يصيبها ؟ قالت: نعم . قال . فهل يكون ولد بغير ذكر ؟ قالت : نعم ألم تعلم ان الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر والبذر انما كان من الزرع؟ ألم تعلم أن الله خلق الشجر من غير مطر وانه جعل بتلك القدرة الغيث حياةً للشجر بعد ما خلق كل واحد منهما وحده، أو تقول لن يقدر الله على أن ينبت حتى استعان عليه بالماء. ولولا ذلك لم يقدر على انباته . قال يوسف : لا أقول هكذا ولكني أقول ان الله يقدر على ما يشاء. انما يقول لذلك : كنْ فيكون . قالت له : ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر وانثى ؟ قال : بلى . فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله لا يسعه أن يسألها عنه لما رأى من كيانتها لذلك .

ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه وذلك لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها ونتوء بطنها وضعف قوتها ودأب نظرها ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك[٦] .

٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١: ٣: ٧٢٤ – ٧٢٦ ؛ ابن الاثير ، الكامل في

قال عكرمة : وكان جبريل عرَضَ في صورة رجل شاب امرد مضي. الوجه جعد الشعر سوي الخلق . قالت الحكماء : انما ارسله الله تعالى في صورة البشر لتثبت مريم عليها وتقدر على سماع كلامه فلما استعاذت منه مريم ، قال : انما انا رسول ربك ... هو علي هين (الآيات) . فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ في جيب درعها وكانت قد وضعته عنها . فلما انصرف عنها لبست مريم درعها وحملت بعيسى عليه السلام ثم ملأت قلتها وانصرفت الى المسجد .

وقال السدي وعكرمة : ان مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرة ، فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها حتى اذا طهرت عادت الى المسجد . فبينما هي تغتسل من الحيض وقد اتخذت مكاناً شرقياً اي شرقاً لانه كان في الشتاء في أقصر يوم في السنة .

قال الحسن : انما اتخذت النصارى المشرق قبلة لان مريم انتبذت مكاناً شرقياً[٧] فاتخذت فضربت من دونهم حجاباً أي ستراً . وقال مقاتل : جعلت الجبل بينها وبين قومها فبينما هي كذلك في تلك الحالة ، اذ عرض لها جبريل وبشرها بعيسى ونفخ في جيب درعها . قال وهب : فلما اشتملت على عيسى

التاريخ ، ١ : ٢١٨ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٢ ؛ الكسائي ، قصص الأنبياء ، ٣٠٢-٣٠٣ ؛ قابل بالبلوي جزئياً ، كتاب الف باء ، ١ : ٤٠٦ ، حيث مريم تخبر يوسف عن سرّ حالها قائلة استناداً الى كلام القرآن : «ان الله بشرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم.» هذا النص هو توسيع يحاكي مبالغات انجيل الطفولة في نصه الارمني والسرياني ، ٧ ، لما ورد في الانجيل الحقيقي : « لما خطبت مريم ... الى يوسف وجدت من قبل ان يجتمعا حبل من الروح القدس . واذ كان يوسف رجلها صديقاً ولم يرد ان يشهرها هم بتخليتها سراً . وفيما هو متفكر في ذلك اذا بملاك الرب تراءى له في الحلم قائلاً : يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ امرأتك مريم فان المولود منها انما هو من الروح القدس . » متى ، ١ : ١٨-٢٠

٧) لا علاقة بين الامرين ، وانما اورده الحسن لان القرآن يقول ان مريم انتبذت مكاناً شرقياً . والاصح ان قبلة الكنائس عند النصارى هي جهة الشرق بسبب اورشليم حيث ولد المسيح فشاهد المجوس نجمه في المشرق ، ومن المشرق سيعود في آخر الزمان . والآباء السريان واليونان يدعون المسيح نفسه « المشرق » .

كان معها ذو قرابة يقال له يوسف[٨] .

فلما أحست مريم خرجت الى جانب المحراب الشرقي فأتت اقصاه ففاجاءها المخاض الى جذع النخلة فقالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، يعني نُسي ذكري واثري فلا يرى أثر ولا عين . قالت مريم: كنتُ اذا خلوت حدثني عيسى وحدثتهُ فاذا كان عندنا انسان سمعت تسبيحه في بطني . فناداها جبرئيل من تحتها أي من أسفل الجبل: لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهو النهر الصغير أجراه تحتها . فمن قرأ من تحتها بكسر الميم جعل المنادي جبرئيل ومن فتحها[٩] قال: انه عيسى انطقه الله . وهزي اليك بجذع النخلة ، وكان جذعاً مقطوعاً فهزته فاذا هو نخلة وقيل كان مقطوعاً . فلما أجهدها الطلق احتضنته فاستقام واخضر وأرطب ، فقيل لها : هزي اليك بجذع النخلة فهزته فتساقط الرطب ، فقال لها : كلي واشربي وقري عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسياً . وكان من صام في ذلك الزمان لا يتكلم حتى يمسي . فلما ولدته ذهب ابليس فأخبر بني اسرائيل أن مريم قد ولدت فاقبلوا يشتدّون بدعوتها فأتت به قومها تحمله .

وقيل إن يوسف النجار تركها في مغارة اربعين يوماً ثم جاء بها الى أهلها فلما رأوها قالوا لها : يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ، يا اخت هرون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً فما بالك انت . وكانت من نسل هرون اخي موسى .. كذا قال . قلت انها ليست من نسل هرون ، انما هي من سبط يهوذا بن يعقوب من نسل سليمان بن داود وانما كانوا يدعون بالصالحين وهرون من ولد لاوي بن يعقوب[١٠] . قالت لهم ما أمرها الله به . فلما ارادوها بعد

٨) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨١-٣٨٢ .

٩) اي فتح الميم في كلمة : « من » يعني « الذي هو تحتها » .

١٠) انما واحدة من المحاولات التي قام بها المفسرون لابعاد التناقض عن القرآن الذي يذكر مريم بابنة عمران واخت هرون . وهرون اخو موسى وبين موسى ومريم ام المسيح نحو الف وخمسمائة سنة . وكان لموسى وهرون اخت اسمها مريم ذكر اسمها الكتاب المقدس ، سفر الخروج ، ١٥ : ٢٠ ؛ ومنهم من يقول ان هرون هذا كان معاصراً لمريم : « قال

ذلك على الكلام اشارت اليه فغضبوا وقالوا : لسخريتها بنا اشدّ علينا من زنائها . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً . فتكلم عيسى فقال : اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكوة ما دمت حياً. فكان اول ما تكلم به العبودية ليكون ابلغ في الحجة على من يعتقد انه اله . وكان قومها قد اخذوا حجارة ليرجموها فلما تكلم ابنها تركوها. ثم لم يتكلم بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان[11].

(عن نوف البكالي) : كانت مريم عليها السلام فتاة بتولاً وكان زكريا زوج اختها كفلها . فكانت معه قال : فكان يدخل عليها يسلّم عليها. قال: فتقرب اليه فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء.. قال: فدخل عليها زكريا عليه السلام مرة فقربت اليه بعض ما كانت تقرّب . قال : يا مريم أنّى لك هذا ؟ قالت :هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريا ربه . قال : ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء. قال : فبينما هي جالسة في مترلها اذا رجل قائم بين يديها قد هتك الحجب فلما رأته قالت : اني اعوذ بالرحمن ان كنت تقياً . . وكان امراً مقضياً (الآيات) فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها فحملت حتى اذا أثقلت وجمت كما توجع النساء .

فلما وجمت كانت في بيت النبوّة فاستحيت فهربت حياء من قومها نحو المشرق . وخرج قومها في طلبها يسألون عنها فلا يخبرهم عنها أحد . فأخذها المخاض الى النخلة وقالت: يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً . . فناداها من تحتها قال : جبريل عليه السلام ، من اقصى الوادي ، ان لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ، قال : جدولاً . وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك

قتادة : كان هرون رجلاً صالحاً من انقياء بني اسرائيل وليس هرون اخي موسى وذكروا انه تبع جنازته يوم مات اربعون الفاً من بني اسرائيل وكلهم يسمى هرون . وقال وهب: كان هرون من افسق بني اسرائيل واظهرهم فساداً فشبهوها به » ، الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٦ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢٢٠-٢٢١ .

رطباً جنياً فكلي واشربي وقرّي عيناً فاما ترينَّ من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً ، فلن اكلم اليوم انسياً .

فلما قال لها جبرائيل اشتد ظهرها وطابت نفسها ، قطعت سرره ولفته في خرقة وحملته . قال : فلقي قومها راعي بقر وهم في طلبها . قالوا : يا راعي هل رأيت فتاة كذا وكذا ؟ قال : لا ، ولكن رأيت البارحة في بقري شيئاً لم أره منها قط فيما خلا . قالوا : وما رأيت منها ؟ قال : رأيتها باتت ساجدة نحو هذا الوادي . فانطلقوا حيث وصف لهم ، فلما رأتهم مريم عليها السلام ، جلست ترضع عيسى عليه السلام فجاءوا حتى قاموا عليها وقالوا لها : يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . قال : امراً عظيماً . يا اخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً . قال ابو عمران : قال نوف : فأشارت اليه بأن كلموه ، فعجبوا منها . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال نوف : المهد حجرها . فلما قالوا ذلك ترك عيسى عليه السلام ثديها واتكأ على يساره ثم تكلم . قال : اني عبد الله (الآيات)[١٢] قال : فاختلف الناس فيه[١٣] .

فلما دنا نفاسها اوحى الله اليها ، ان اخرجي من ارض قومك فانهم ان ظفروا بك عيّروك وقتلوا ولدك . فأفضت عند ذلك الى اختها ، واختها حينئذ حبلى وقد بشرت بيحيى فلما التقيا[١٤] وجدت ام يحيى ما في بطنها خر لوجهه ساجداً معترفاً بعيسى[١٥] .

فاحتملها يوسف الى ارض مصر على حمار له ليس بينها ، حين ركبت الحمار ، وبين الاكاف شيء . فانطلق يوسف بها ، حتى اذا كان متاخماً لارض مصر في منقطع بلاد قومها ، ادرك مريم النفاس والجأها الى آري حمار ، يعني مذود الحمار ،

---

١٢) سورة مريم ١٩ : ٢٧-٣٣ .

١٣) ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ٦ : ٥١-٥٢ .

١٤) هكذا في الاصل .

١٥) وفي الانجيل : « فعندما سمعت اليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها وامتلأت من الروح القدس ، فصاحت بصوت عظيم وقالت : . . . فانه عندما بلغ صوت سلامك الى اذني ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني . » لوقا ، ١ : ٤١-٤٤ .

في اصل نخلة وذلك في زمان الشتاء . فاشتد على مريم المخاض فلما وجدت منه شدة التجأت الى النخلة فاحتضنتها واحترشتها الملائكة قاموا صفوفاً محدقين بها . فلما وضعت وهي محزونة ، قيل لها : ألا تحزني (الآيات ، حتى انسا)[16] فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء .

فأصبحت الاصنام التي كانت تُعبد من دون الله حين ولدت بكل ارض مقلوبة منكوسة على رؤوسها . فنزعت الشياطين وراءها ، فلم يدروا ما السبب ، فساروا عند ذلك مسرعين حتى جاءوا ابليس وهو على عرش له في لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء . ويتحجب بتمثل بالحجب التي دون الرحمن فاتوه وقد خلا ست ساعات من النهار فلما رأى ابليس جماعتهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعاً منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، انما كان يراهم أشتاتاً فسألهم فاخبروه انه قد حدث في الارض حدث ، أصبحت الاصنام منكوسة على رؤوسها ولم يتكن شيء اعون على هلاك بني آدم منها كنا ندخل في اجوافها فنكلمهم وندبر أمرهم فيظنون انها هي التي تكلمهم فلما أصابها هذا الحدث صغرهم[17] في اعين بني آدم ، وأذلها وأدناها ذلك ، وقد خشينا الا يعبدوها بعد ذلك أبداً وأعلم انا لم نأتك حتى احصينا الارض وقلبنا البحار وكل شيء تويتا عليه فلم نزدد بما اردنا الا جهلاً . قال لهم ابليس : ان هذا لامر عظيم ، لقد علمت باني كنتُ ، وكونوا على مكانكم هذا . فطار ابليس عند ذلك فلبث عنهم ثلاث ساعات فمرّ فيهن بالمكان الذي وُلد فيه عيسى فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم ان ذلك الحدث فيه . فأراد ابليس ان يأتيه من فوقه فاذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم عند السماء . ثم اراد ان يأتيه من تحت الارض فاذا اقدام الملائكة راسية اسفل مما اراد ابليس . ثم اراد ان يدخل من بينهم فنحوه عن ذلك ، ثم رجع ابليس الى اصحابه فقال لهم : ما جئتكم حتى احصيت الارض كلها مشرقها ومغربها برها وبحرها ، والخافقين والجو الاعلى وكل هذا بلغتُ في ثلاث ساعات ، وأخبرهم بولد المسيح وقال لهم : لقد كُنتُ شأنه وما اشتملتْ قبله رحم انثى على ولد الا بعلمي ، ولا وضعته قط

١٦) سورة مريم ١٩ : ٢٤-٢٦ .
١٧) هكذا في النص .

الا وأنا حاضرها ، واني لارجو ان أُفضل به أكثر مما يهتدي به وما كان من نبي قبله أشد علي وعليكم منه[١٨] .

قال الكلبي : لما كان يوسف ببعض الطريق اراد قتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : انه من روح القدس فلا تقتلها . واختلف العلما في مدة حملها ، تسعة أشهر أو ثمانية لانه لم يعش مولود لثمانية أشهر غير عيسى ، أو ستة ، أو ثلاث ساعات ، أو ساعة .

وقال ابن عباس : ما هو إلا ان حملت ووضعت ولم يكن بين الحمل والوضع الا ساعة واحدة لان الله لم يذكر بينهما فصلًا ...

وقال مقاتل : حملت أمه في ساعة وصُوّر في ساعة ووضع في ساعة حين زالت الشمس من يومها وهي بنت عشرين سنة . وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى ...

قال الربيع بن الخيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل . وقال عمرو بن ميمون : ما ادري للمرأة اذا عسرت عليها ولادتها خيرًا من الرطب وقرأ هذه الآية[١٩] . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلعم يضغ التمر ويحنك به اولاد الصحابة حين يولدون . وقال بعض البلغا في وصف التمر : علة الصغير ونهلة الكبير . ثم أن يوسف النجار عمد الى حطب فجعله كالخليرة حواليها بالقرب منها اذ قد أضرّ بها البرد . ثم أشعل لها نارًا لتصطلي بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت في خرجه فأطعمها اياها ،

١٨ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٢٧ - ٧٢٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٢ : ٢٢١ - ٢٢٢ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٤ - ٣٨٥ ؛ الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣ : ٢٦ ؛ مكاشفة القلوب ، ٣٢ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٧ : ٢٧٨ ؛ لا شك في ان هذه القصة هي مقتبسة مع بعض التشويش عن الاناجيل الموضوعة ؛ حيث نجد ان الاصنام تتحطم لدى دخول المسيح سابدها في مصر ؛ هكذا في انجيل متى المزعوم ، ٢٣ . وفي انجيل طفولية سيدنا ، كما ورد في نصه الارمني ، ١٥ : ٦ - ١٦ . ونجد حوارًا بين ابليس والشياطين يشبه ما اورده الطبري ، هكذا في انجيل نيقوديموس الموضوع ، راجع فابريسيوس : الاناجيل الموضوعة ١ : ٢٧٩ الخ ...

١٩ وهزي بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا ، فكلي واشربي ...

فمن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجوز[٢٠] .

فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد ارض مصر، وهي الربوة التي قال الله تعالى : وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين .

ذكر أبو اسحق الثعلبي في التفسير : ذات قرار ومعين . قال عبدالله ابن سلام : هي دمشق . وقال أبو هريره : هي الرملة[٢١] . وقال قتادة وكعب : هي بيت المقدس . وقال كعب : هي أقرب الارض الى السماء ، وقال ابو زيد : هي مصر . وقال الضحاك : هي غوطة دمشق . وقال ابو العالية : هي ايلياء . وقال القزاز : الارض المستوية ، والمعين : الماء الطاهر .

فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين وكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبها ، والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة[٢٢] .

المجوس

وذكر بعض اهل الاخبار ان مولد عيسى عليه السلام كان لمضي اثنتين واربعين سنة من ملك اغوسطوس وان اغوسطوس عاش بعد ذلك بقية ملكه وكان جميع ملكه ستاً وخمسين سنة ، قال بعضهم : واياماً . قال وورثت اليهود بالمسيح والرئاسة ببيت المقدس في ذلك الوقت لقيصر والملك على بيت المقدس من قبل قيصر هيرودوس الكبير الذي دخلت عليه رسل فارس غلطا واخبروه ان ملك فارس بعث بهم ليقربوا الى المسيح الطافاً معهم من ذهب ومر ولبان،

٢٠) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٣–٣٨٤ .

٢١) ان التقليد المسيحي يزعم ان العائلة المقدسة ، مريم وابنها ويوسف ، قد اتخذت ، حين هربت الى مصر ، مقرًا في مطرية ، وهي مكان يبعد نحو عشر كيلو مترات عن القاهرة ، نحو هليوبوليس القديمة ؛ ومن هناك ترلوا الى ما يسمى الآن مصر العتيقة ، وهناك كنيسة اليوم اسمها ابو سرجة يحتفظ الاقباط فيها بهذه الذكرى ، راجع « انجيل طفولية سيدنا » ٢٤–٢٥ و A. J. Butler, *The Ancient Coptic Churches in Egypt*. I. Oxford. (1884). ص ١٨١–٢٠٥

٢٢) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٦ .

وانهم نظروا الى نجمه قد طلع فعرفوا ذلك بالحساب وقربوا الالطاف اليه ببيت لحم من فلسطين . فلما عرف هيرودوس خبرهم كاد المسيحَ فطلبه ليقتله فأمر الله الملك ان يقول ليوسف الذي كان مع مريم في الكنيسة ما اراد هيردوس من قتله ، وأمره ان يهرب بالغلام وامه الى مصر[٢٣] .

وخرج في تلك الليلة قوم يؤمونه[٢٤] من أجل نجم طلع أنكروه وكانوا قبل ذلك يتحدثون ان مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال[٢٥] فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم اين يريدون فأخبروه بذلك قال : فما بال الذهب والمر واللبان اهديتموه له من بين الاشياء كلها ؟ قالوا: تلك امثاله لان الذهب هو سيد المتاع كله وكذلك هذا النبي هو سيد اهل زمانه ولان المرّ يُجبَر به الجرح والكسر وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض ولان اللبان ينال دخانه السماء. ولا ينالها دخان غيره[٢٦] . فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدّث نفسه بقتله فقال : اذهبوا فاذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك فاني أرغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره. فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية الى مريم وارادوا ان يرجعوا الى هذا الملك ليعلموه مكان عيسى فلقيهم ملَك فقال لهم : لا ترجعوا اليه

٢٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٤٠ .

٢٤) اي يؤمون عيسى .

٢٥) قد يكون في هذا اشارة الى نبوءة دانيال عن ابن البشر ، الفصل السابع ؛ او الى قصة الفتية في اتون النار كما يعرد ذلك في ادناه ، دانيال ، ٣ : ٥٠ ؛ وعلى كل حال فان الاناجيل الموضوعة في اصلها النسطوري ، وبين الناطرة وبلاد فارس علاقات تاريخية وجغرافية ، نذكر ان زرادشت مؤسس الدين المجوسي تنبأ عن مولد طفل من عذراء وان علامته نجم يطلع في السماء يكون اشد لمعاناً من الشمس ، وهذا النجم يكون هادياً للمجوس الى المدينة المقدسة ، وقال المتروبوليت يشوع بن نون ان زرداشت هذا لم يكن الا بلعام المنجم ؛ انظر النص العربي « لانجيل طفولية سيدنا » وقد نقله اسحق ابن ابي الفرج ابن الطيب المنطبب في ماردين ، مخطوطة المكتبة اللورنسية في فلورنسا ، تحت جزء Codex orientalis عدد ٣٢ ، صفحة ٢ .

٢٦) اعتاد آباء الكنيسة ان يقدموا شرحاً آخر ، فالذهب في اعتقادهم هو رمز ملك المسيح ، والمرّ رمز آلامه ، واللبان اي البخور رمز الوهيته .

ولا تعلموه بمكانه فانه انما اراد بذلك ليقتله فانصرفوا في طريق آخر واحتملته مريم على ذلك الحمار ومعها يوسف حتى وردا ارض مصر فهي الربوة التي قال الله : وأويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين[٢٧] .

كان كورش الملك حين ولد المسيح بعث بثلاث انفس ودفع الى أحدهم صرة من لبان والى الآخر صرة من مرّ والى الثالث صرة من تبر وسيّرهم يهتدون بنجم وصفه لهم فساروا حتى انتهوا الى المسيح وامه بأرض الشام .

والنصارى تغلو في قصة هؤلاء النفر وهذا الخبر موجود في الانجيل وان هذا الملك كورش نظر الى نجم قد طلع بمولد المسيح فكانوا اذا ساروا سار معهم ذلك النجم واذا وقفوا وقف بوقوفهم . وقد أتينا في كتابنا « اخبار

---

٢٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٢٨–٧٢٩ ؛ انظر اليعقوبي الذي يورد نصوص الإنجيل على خفيفتها اجمالاً ، في تاريخه ، ١ : ٧٥–٧٦ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٨٥ . وفي الانجيل : « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في ايام هيرودس الملك اذا بمجوس اقبلوا من المشرق الى اورشليم قائلين : اين المولود ملك اليهود فانا رأينا نجمه في المشرق فوافينا لنسجد له . فلما سمع هيرودس الملك اضطرب هو وكل اورشليم معه وجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب واستخبرهم اين يولد المسيح ، فقالوا له في بيت لحم اليهودية لانه هكذا كُتب بالنبي : وانت يا بيت لحم ارض يهوذا لست الصغيرة في رؤساء يهوذا لانه منك يخرج المدبر الذي يرعى شعبي اسرائيل (نبوءة ميخا ، ٥ : ١) . حينئذ دعا هيرودس المجوس سرًا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر . ثم ارسلهم الى بيت لحم قائلاً : اذهبوا وابحثوا عن الصبي متحققين واذا وجدتموه فاخبروني لكي اذهب انا أيضاً واسجد له فلما سمعوا هذا من الملك ذهبوا فاذا النجم الذي كانوا رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق الموضع الذي كان فيه الصبي . فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً واتوا الى البيت فوجدوا الصبي مع مريم امه فخرّوا ساجدين له وفتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا من ذهب ولبان ومرّ . ثم اوحي اليهم في الحلم ان لا يرجعوا الى هيرودس فرجعوا في طريق آخر الى بلادهم . فلما انصرفوا اذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً : قم فخذ الصبي وامه واهرب الى مصر وكن هنالك حتى اقول لك فان هيرودس مزمع ان يطلب الصبي ليهلكه . فقام واخذ الصبي وامه ليلاً وانصرف الى مصر وكان هناك الى وفاة هيرودس ليتم المقول من الرب بالنبي القائل (نبوءة هوشع ، ١١ : ١) : « من مصر دعوت ابني » ، متى ، ٢ : ١ – ١٥ .

الزمان » على شرح هذا الخبر وما قالت فيه المجوس والنصارى وخبر الرغفان التي دفعتها اليهم مريم وما كان من الرسل وجعلهم الخبز تحت الصخرة وغوصها في الارض وذلك بفارس وكيف حفر عليها الى الماء. وانها وجدت وقد صارت شعلتي نار على وجه الارض تتقدان وغير ذلك مما قيل في هذا الخبر[٤٨] .

خصائص مريم

ان الله تعالى دبّر للعباد اموراً من النفوس سلوك طريق ذلك التدبير وعرفوه ووطنوه ، ثم له تعالى في ذلك التدبير تدبير آخر مختص . فأهل الضيق يتحيرون ويضيقون ومن عاين الصنفين والتدبيرين لم يضق . وان لله عز وجل في كل تدبير مشيئة ان شاء امضاه وان شاء أخره . فالتدبير الذي قد وطنه الناس ان يكون بالولد من ذكر وانثى . فاختص الله تعالى لعيسى بن مريم تدبيراً فحملت به مريم من غير ذكر فتحير فيه علماء ذلك الزمان واحبارهم وهلك فيه العام والسفهاء ، وأدرك مريم رضى الله عنها بعض تلك الحيرة فقالت : أنّى يكون لي ولد ولم يمسني بشر ولم اكُ بغياً ؟ قال : كذلك يخلق ما يشاء . فأبصرت واذعنت لحكم ربها تعالى وتقدس فاستوجبت بذلك أن اثنى عليها رب العالمين فقال : وصدقت بكلمات ربها وقال: وامه صديقة. وكذلك فعل زكريا عليه السلام فيما بشر به من الولد بعد الكبر ، وكذلك رزق مريم رضى الله عنها لي كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال : يا مريم أنى لك هذا ، قالت: هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب.

---

٤٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : ٧٩ – ٨٠ ؛ اما قصة الرغفان او الارغفة فقد حورها المسعودي ، وهي في الاصل اسطورة الفاط الذي اخذته مريم من اقطة الطفل واعطته للمجوس . وعندما رجع هؤلاء الى بلادهم عيد لهم اهلوهم فاشعلوا النار التي كانوا يعبدونها والقوا فيها الفاط فاشتعل ولم يحترق ، ولما خمدت النار استرجعوا الفاط فاذا هو ابيض كالثلج وانبت من ذي قبل فلشوه ووضعوه على اعينهم فانارت : حقاً انه لباس رب الارباب اذ ان نار الالهة لم تقدر على احراقه ؛ راجع الاناجيل الموضوعة في نصها العربي ، « انجيل طفولية سيدنا » ، ٧–٨ ؛ والسرياني ، ٣ (طبعة Sike) ؛ قابل بالكتاب السرياني النسطوري سليمان البصري ، في طبعة بودج (Budge) : The Book of the Bee ، ٣٧–٤٠ .

فقد علم الناس ارزاقهم من مظانها من السوق ومن الكدس ومن الكرم ومن الكيس ومن ايدي الخلق ، فرزقت على وجه التدبير المختص بما لم تجـــه ايدي العالمين[٢٩] .

ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه فالتصديق بالكلمة اعظم الاشياء لانها لم تعاين الملائكة وانما سمعت صوت البشرى : ان الله يبشرك بكلمة منه فصدقت ولم تردد[٣٠] فسماها الله صديقة في تنزيله فقال : وامه صديقة . فبالاتصال بلغ العباد أعلى منازل الصديقين فلا يتالهم في امر الله حيرة . ألا ترى ان ساره لما بُشرت باسحاق كيف اضطربت حتى أنكرت الملائكة من قولها : ان هذا الشيء عجيب . فقالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ فتبين هنا منها نقص وتبين الكمال من مريم حين بُشرت بالكلمة من قوله : ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . فعندها قالت : أنى يكون لي ولد ولم يمسني بشر . فانما سألت من أين هذا الولد لانه قد جاءها من أمر الله ما ليس في البشر مثله والذي جاء من أمر ساره ليس بمستنكر قد يكون مثله في البشر ألا ترى أنه لما جاء الولد من ابراهيم وساره لم يفتتن الخلق بـه ويجيء عيسى عليه السلام فتنة[٣١] .

فقوله تعالى لمريم : اقنتي لربك اي أطيعي ربك فهذا تفسير ظاهر ، ولكن أريد من مريم القنوت في الباطن وهو أن تقبل بقلبها على الله مظلاً على النفس مشتملاً على شهواتها لئلا تتحرك وتتفرق غلياناً وتجيش حتى يفور دخانها الى الصدر الى محل اشراق نور الالوهية ، فانه ليس من حق عطايا ربنا أن يعطي عبداً اشراق نور عظمته في صدره فيهمل العبد حراسته ورعايته حتى تفور حرارة شهواته كفوران القدر التي تغلي الى صدره كالدخان بين يدي نور العظمة في صدره . . . فأمرت مريم بالقنوت اي بالدوام وبالركود بمقابلة القلب قبالة عظمة الله

٢٩) الترمذي ، نوادر الاصول ، ٩٤-٩٥ .
٣٠) وفي الهامش : « لعله لم تتردد » .
٣١) الترمذي ، نوادر الاصول ، ٣٥٧ .

حتى يدوم لها التعظيم لجلال الله[٣٢] .

وللرجال عليهن[٣٣] درجة لان حواء صدرت عن آدم فلم تزل الدرجة تصحبه عليها في الذكورة على الانوثة وان كانت الام سبباً في وجود الابن فابنها يزيد عليها بدرجة الذكورة . . . ولما كان الولد لا يدعي الا لابيه لا ينسب الى امه لان الاب له الدرجة وله العلو فينسب الى الاشرف ، ولما لم يتمكن لعيسى عليه السلام أن ينسب الى من وهبه لها بشراً سوياً أعطيت امه الكمال وهو المقام الاشرف فنُسب عيسى اليها فقيل عيسى بن مريم فكان لها هذا الشرف بالكمال مقام الدرجة التي بها شرف الرجال على النساء ، فنسب الابن الى ابيه لاجلها[٣٤] . وكمال مريم شهد لها بذلك رسول الله صلعم[٣٥] .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلعم : حسبك من نساء العالمين اربع : مريم بنت عمران واسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلعم[٣٦] .

وأخبرنا شعيب بن محمد باسناده عن قتادة قال : كل ادمي يطعنه الشيطان في جنبه حين يولد الا عيسى وامه عليهما السلام جُعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ اليهما منه شيء . قال : وذكروا لنا انهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بني آدم[٣٧] .

وكانت مريم عليها السلام أجل النساء وأمثلهن في وقتها[٣٨] .

(عن أبي هريرة) : ما من مولود يولد الا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسه الشيطان الا ابن مريم وامه. ثم قال أبو هريرة : اقرأوا ان شئتم

---

٣٢) الترمذي ، نوادر الاصول ، ٤١٤ – ٤١٥ .

٣٣) اي على النساء .

٣٤) اي لاجل الدرجة .

٣٥) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣ : ١٢–١٣ .

٣٦) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٧٢ ؛ ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ٢ : ٣٤٤ .

٣٧) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٧٢ .

٣٨) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٧٢ .

واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم[٣٩] .

يا معشر الملائكة اني خلقت اربع فتيات من نساء العالمين وفضلهن على الحور العين كفضل الشمس على القمر وعلى سائر الكواكب: اسيه بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد[٤٠] .

... امّ هذا الروح الطيب التي اختارها الله لكلمته وطهّر جوفها لروحه وسدّدها على امانه[٤١] .

(عن ابي هريرة) : سمعت رسول الله صلعم يقول : نساء قريش خير نساء ركبن الابل احناه على طفل وارعاه على زوج في ذات يده . قال: يقول ابو هريرة على اثر ذلك : ولم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط[٤٢] .

(عن علي) : سمعت رسول الله صلعم يقول: خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . قال ابو كريب : واشار وكيع الى السماء والارض[٤٣] .

(عن ابن معاذ) : سمعت رسول الله صلعم يقول : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران واسية امرأة فرعون وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[٤٤] .

وقال صلعم : اربع نساء سيدة نساء العالمين : مريم واسيةُ وخديجة وفاطمة[٤٥] .

---

٣٩) مسلم ، الصحيح ، ٢ : ٢٢٤ ؛ ابن حنبل ، المسند ، ٢ : ٢٣٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣١٩ ، ٣٦٨ ، ٤٢٣ ؛ البخاري ، الجامع الصحيح (طبعة كرهل) ، ٣ : ٣٦٦ .

٤٠) الله هو المتكلم ، الكسائي ، قصص الانبياء ، ١٩٩ .

٤١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٩٨ .

٤٢) مسلم ، الصحيح ، ٢ : ٢٧٠ ؛ البخاري ، الجامع الصحيح ، (طبعة كرهل) ، ٣ ، ٣٦٦

٤٣) مسلم ، الصحيح ، ٢ : ٢٤٣ .

٤٤) مسلم ، الصحيح ، ٢ : ٢٤٣ .

٤٥) ابن حنبل ، المسند ، ٣ : ٦٤ ، ١٣٥ ؛ ابو داود ، سنن ، عدد ٥٠٤ ؛ البخاري ، الجامع الصحيح ، ٢ : ٥١٥ ؛ الترمذي ، نوادر الاصول ، ٣٠٧ ؛ ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ٢ : ٤٢ : « تلك (مريم) سيدة نساء عالمها وانت (فاطمة) سيدة نساء عالمك » .

اما اكرم الخلق على الله عز وجل آدم خلقه الله بيده وعلّمه الاسما. كلها. واما اكرم امائه عليه فهي مريم التي احصنت فرجها فنفخ فيه من روحه[٤٦] .

خصائص عيسى

منها تأييده[٤٧] اياه بالروح القدس. قال عز من قائل: وايدناه بروح القدس ، ونظيرها في سورة المائدة اذ قال الله: يا عيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس .

واختلفوا فيه فقال الربيع بن انس : هو الروح الذي نفخ فيه الروح اضافه سبحانه الى نفسه تكريماً وتخصيصاً ، نحو بيت الله وناقة الله ، والقدس هو الله تعالى يدل عليه قوله تعالى : وروح منه — فنفخنا فيه من روحنا .

وقال آخرون : اراد بالقدس الطهارة اي الروح الطاهر لانه لم تتضمنه اصلاب الفحول ولم تشتمل عليه ارحام الطوامث ، انما كان امراً من الله تعالى .

قال السدي وكعب: روح القدس جبريل وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو انه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار الى ان صعد به الى السما.. وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمير: هو اسم الله الاعظم وبه كان يحيي الموتى ويري الناس تلك العجائب .

ومنها تعليم الله اياه الانجيل والتوراة وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى : واذ علمتك الكتاب ، اي الخط . قيل : الخط عشرة اجزاء فتسعة منها لعيسى والحكمة والتوراة والانجيل[٤٨] .

الله خاصة طهر جسمه عن الاقذار الطبيعية فانه روح متجسد في بدن مثالي روحاني ولذلك بقي مدة مديدة زائدة على الف في زماننا هذا ومن الهجرة سبعمائة وثلاثون بثلاثمائة وستة وثلاثين . فان من ميلاد النبي الى زماننا هذا سبعمائة واحدى وثمانين سنة. وذلك اما من صفاء جوهر طينته ولطافتها وصفاء

٤٦) الدميري ، لحياة الحيوان الكبرى ، ٣ : ٣٧٤ .

٤٧) اي تأييد الله لعيسى .

٤٨) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٩١-٣٩٢ .

طينة امه وطهارتها . ونزّه روحه وقدسه من التأثر بالهيئات الطبيعية والصفات البدنية لتأييده بروح القدس الذي هو على صورته ولهذا ما قتل وما صلب كما اخبر الله عنه لتجرده عن الملابس الهيولانية وصيّره مثلًا له بتكوين الطير من الطين وتكوين الاعراض من الحياة والصحة في الموتى والمرض في نشأته الاولى وبكونه خليفة الله وخاتم الولاية في نشأته الثانية اي مثله في الصفات ، او صيّره مثل الخلق في الصورة بتكوينه تعالى اياه من الطبيعة الجسمانية[٤٩] .

وقد قال تعالى : لقد فضّلنا بعض النبيين على بعض . وقال : منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . فكان عيسى عليه السلام من المفضلين . ولأدلاله سلّم على نفسه فقال : والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيًا ، وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس . واما يحيى بن زكريا فانه اقيم مقام الحيية والحياء فلم ينطق حتى اثنى عليه خالقه فقال : وسلام عليه[٥٠] .

ذكر من تكلم في المهد وهم اربعة : صاحب جريج ببراءته من الزنا وشاهد يوسف ببراءته من زليخا[٥١] ابن الماشطة التي لبنت فرعون حذرها من الكفر ، وعيسى بن مريم ببراءة امه عليها السلام[٥٢] .

قال ابن عطا : احسن النبات ما كان ثمرته مثل عيسى روح الله[٥٣] .

المنقول عن عيسى عليه السلام انه قال : ان الله تبارك وتعالى اشتاق ان يرى ذاته المقدسة فخلق من نوره آدم عليه السلام وجعله كالمرآة ينظر الى ذاته

---

٤٩) القاشاني ، شرح على فصوص الحكم ، ٢٥٨-٢٥٩ .

٥٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٤ : ١٩٣ .

٥١) زليخا اسم مزعوم لامرأة فرعون مصر ، فوطيفار ، قابل ما يقوله الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، ٣٩ : ٧-٢٠ بما يقول القرآن ، سورة يوسف : ١٢ عن يوسف بن يعقوب .

٥٢) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ١ : ٥٥ ؛ البخاري ، الجامع الصحيح (طبعة كرهل) ، ٣ : ٣٦٧ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ١ : ٣٨٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ١٠١ ؛ الهندي ، منتخب كنز العمال ، ٦ : ١٦٥ ؛ ابن حنبل ، المسند ، ٣ : ٣٠٧-٣٦٨ ؛ ويقول الحلبي ، انسان العيون ، ١ : ١٠٠ - ١٠١ ، ان عيسى تكلم ثلاث مرات في المهد .

٥٣) البقلي في تفسيره ، ١ : ٨٠ ، ذكره ماسينيون ، مجموعة نصوص ، ٥٦

المقدسة فيها واني انا ذلك النور وآدم المرآة[٥٤] .

ان الله فضله على رجال العالمين وجعله وامه آية للمعتبرين[٥٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي الاضخم ، ملك الحبشة سلام انت . فاني احمد اليك الله الملك القدوس ، السلام ، السلام ، المؤمن المهيمن ، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه واني ادعوك الى الله وحده لا شريك له[٥٦] .

ولما قال اهل الطبيعة ان ماء المرأة لا يتكون منه شيء وان الجنين الكائن في الرحم انما هو من ماء الرجل ، جعلنا تكوين جسم عيسى تكويناً آخر وان كان تدبيره في الرحم تدبير سائر اجسام البنين فان كان من ماء المرأة — وتمثل لها الروح بشراً سوياً — او كان عن نفخ مغاير في النش. غيره من اجسام النوع ، فكان جسماً رابعاً مغايراً للاجسام الثلاثة في سبب نشئه . ولذلك قال الله تعالى : ان مثل عيسى عند الله ، اي صفة نشئه ، كمثل صفة آدم في نشئه ، خلقه من تراب ، والضمير يعود الى آدم ووقع الشبه في خلقه من غير اب ، الا ان آدم خلقه من تراب وعيسى خلقه من نفخه فقال له ما قال .

ثم ان عيسى على ما قيل لم يلبث في بطن مريم لبث البنين المعتاد لانه اسرع اليه التكوين لما اراد الله ان يجعله آية ويرد به على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما اعطتهم من العادة لا بما تقتضيه بما اودع الله فيها من الاسرار والتكوينات العجيبة . ولقد اتصف بعض حذاق علماء الطبيعة فقال لا نعلم منها الا ما اعطتنا خاصة وفيها ما لا نعلم[٥٧] .

---

٥٤) ذكره ماسينيون ، مجموعة نصوص ، ٢٢٨-٢٢٩ .

٥٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧٩٨ .

٥٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٢ : ١٥٧٩ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣ : ٢ : ٢٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٣ : ٦١ الخ . . .

٥٧) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ١ : ١٣٨-١٣٩ .

اما الانسان فقد اختلف خلقه على اربعة انواع من الخلق : فخلق آدم لا يشبه خلق حواء ، وخلق حواء لا يشبه خلق سائر بني آدم ، وخلق عيسى عليه السلام لا يشبه خلق من ذكر... فآدم خُلق من طين ، وحواء من ضلع آدم ، وعيسى من نفخ روح ، وبنو آدم من ماء مهين[٥٨] .

فأول موجود ظهر من الاجسام الانسانية كان آدم عليه السلام وهو الاب الاول من هذا الجنس ... وهو اول من ظهر بحكم الله من هذا الجنس ، ولكن كما قررناه . ثم فصل عنه اباً ثانياً سماه لنا اماً ، فصح لهذا الاب الاول الدرجة عليها لكونه اصلاً ، فختم التراب من دورة الملك بمثل ما بدأ به لينبه ان الفضل بيد الله وان ذلك الامر ما اقتضاه الاب الاول لذاته فأوجد عيسى ابن مريم ، فتنزلت مريم منزلة آدم ، وتنزّل عيسى منزلة حواء ؛ فكما وجد انثى من ذكر وُجد ذكر من انثى ، فختم بمثل ما بدأ به في ايجاد ابن من غير اب كما كانت حواء من غير ام ، فكان عيسى وحواء اخوين ، وكان آدم ومريم ابوين لهما.

ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، فأوقع التشبيه في عدم الابوة الذكرانية من اجل انه نصب ذلك دليلاً لعيسى في براءة امه ؛ ولم يوقع التشبيه بحواء وان كان الامر عليه لكون المرأة محل التهمة لوجود الحمل اذ كانت محلاً موضوعاً للولادة وليس الرجل بمحل لذلك. والمقصود من الادلة ارتفاع الشكوك ، وفي حواء من آدم لا يقع الالتباس لكون آدم ليس محلاً لما صدر عنه من الولادة وهذا لا يكون دليلاً الا عند من ثبت عنده وجود آدم وتكوينه والتكوين منه . وكما لا يعهد ابن من غير اب كذلك لا يعهد من غير ام ، فالمثل من طريق المعنى ان عيسى كحواء ، ولكن لما كان الرجال يتطرق في مثل ذلك من المنكر لكون الانثى محلاً لما صدر عنها ، ولذلك وقعت التهمة ، كان التشبيه بآدم لحصول براءة مريم مما يمكن في العادة وقوعه ، فظهور عيسى ابن مريم من غير اب كظهور حواء من آدم من غير ام وهو الآب الثاني[٥٩] .

وخص (الله) عيسى عليه السلام بكونه روحاً واضاف النفخ اليه فيما خلقه

---

٥٨) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ١ : ١٤٥-١٤٦ .

٥٩) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ١ : ١٥١ .

من الطين ولم يضف نفخاً في اعطاء الحياة لغير عيسى بل لنفسه تعالى[٦٠] .

وقول عيسى عليه السلام : قلب كل انسان حيث ماله فاجعلوا اموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء.[٦١] فمن اكتنز ماله فقد دفن قلبه في ارض طبيعته فلا يلتذ بمشاهدة ابيه الذي هو الروح الالهي ابدًا ، ومثل هذا لا يكون ابن امه وان كان له اب، ولكن لا يُنسب اليه كعيسى بن مريم عليهما السلام . يُنسب الى امه وما وهبه لها الا جبريل عليه السلام لما تمثل لها بشرًا سوياً واعلمها ؛ ومع هذا فما يُنسب الا الى البقعة الجنسية مع كونه يحيي الموتى من حيث ما هو من هنات الروح الامين[٦٢] .

فجمع بين الصورة والروح فكان نشأة تامة ظاهره بشر وباطنه ملك ، فهو روح الله وكلمته[٦٣] .

فتمثل لها جبريل او الملك بشرًا سوياً وقال لها انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً فوهبها عيسى عليه السلام. فكان انفعال عيسى عن الملك المتمثل في صورة الرجل ، ولذلك خرج على صورة ابيه ذكرًا بشرًا روحاً ، فجمع بين الصورتين اللتين كان عليهما ابوه الذي هو الملك ، فانه روح من حيث عينه ، بشر من حيث تمثله في صورة البشر[٦٤] .

واما خاتمية عيسى عليه السلام فله ختام دورة الملك ، فهو آخر رسول ظهر بصورة آدم في نشئه ، فانه لم يكن عن اب بشري ولم يشبه الابناء اعني ذرية آدم في النشء فانه لم يلبث في البطن اللبث المعتاد ، فانه لم ينتقل في اطوار

---

٦٠) ابن العربي، الفتوحات المكية، ٢: ٥٨ .

٦١) وعن الانجيل : « لا تكنزوا لكم كنوزًا على الارض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون . لكن اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك . » متى، ٦: ٢٠-٢١ .

٦٢) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣: ٣٥٧ .

٦٣) ابن العربي، الفتوحات المكية، ٢: ٣٤ .

٦٤) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣: ٢٠٤ .

النشأة الطبيعية بمرور الازمان المعتادة بل كان انتقاله يشبه البعث يعني احيا. الموتى يوم القيامة في الزمان القليل على صورة من جاؤوا عليها في الزمان الكثير، فهو داخل تحت عموم[٦٥] .

لم يذكر (القرآن) في غير نشأة الانسان قط تسوية ولا تعديلًا .. لان التسوية والتعديل لا يكونان معاً الا للانسان لانه سوّاه على صورة العالم وعدّله عليه ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر . ثم قال له بعد التسوية والتعديل : كنْ . وهو قوله : ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كنْ ، فشبّه الكامل وهو عيسى عليه السلام بالكامل وهو آدم عليه السلام ، خليفة بخليفة.. وغير الخلفاء انما سواه ونفخ فيه من روحه وما قال فيه انه قال له : كنْ ، او في الآية الجامعة في قوله : انما قولنا لشيء اذ اردناه ان نقول له كن فيكون[٦٦] .

انه خليفة وانسان كامل[٦٧] .

واما روح عيسى عليه السلام فهو منفوخ بالجمع والكثرة ففيه قوى جميع الاسماء والارواح فانه[٦٨] قال : فنفخنا بنون الجمع ، فان جبريل عليه السلام وهبه لها بشراً سوياً فتجلى في صورة انسان كامل[٦٩] .

ولم يحل بينه وبين ادراك قربه من الله حائل لبعده عن عالم الاركان في خلقه فلم يكن عن اب عنصري ولكن كان روح الله وكلمته القاها الى مريم فلم يكن ثم ما ينبيه عمن صدر عنه فقال مخبراً عما شاهده من الحال فحكم في مهده على مرأى من قومه الذين افتروا في حقه على امه مريم فبرأها الله بنطقه وبجنين جذع النخلة اليه، اذ اكثر الشرع في الحكم بشاهدين عدلين ولا اعدل من هذين .

---

٦٥) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣:٥٦٨ .

٦٦) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣:٣٣١ .

٦٧) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣:٣٣١ .

٦٨) اي الله تعالى .

٦٩) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٢:٢١٨ .

فقال اني عبد الله فحكم على نفسه بالعبودية لله وما قال ابن فلان ، لانه لم يكن ثمّ ، وانما كان حق تجلى في صورة روح جبرائيلي لما في القضية من الجبر الذي حكم في الطبيعة بهذا التكوين الخاص الغير المعتاد . . .

نسبته العنصرية في خلقه فكان اقرب الى ربه . فكان احدث عهد بعبوديته لربه[٧٠] .

فاتاه الحكم بما ذكره وهو صبي رضيع في المهد فكان اتم في الوصلة بربه من يحيى ابن خالته . فان عيسى سلم على نفسه بسلام ربه ولهذا ادُّعي فيه انه اله ، ويحيى سلم عليه ربه تعالى ولم ينص على انه عرف بذلك السلام عليه او لم يعرف[٧١] . واعلم ان الناس يستغربون الحكمة في الصبي الصغير دون الكبير لانهم ما عهدوا الا الحكمة الظاهرة عن التفكير والروية وليس الصبي في العادة بمحل لذلك فيقولون انه ينطق بها فتظهر عناية الله بهذا المحل الظاهر فزاد يحيى وعيسى عليهما السلام بانهما على علم بما نطقا به علم ذوق ، لان مثل هذا في هذا الزمان والسن لا يصح ان يكون الا ذوقاً . فان الله اتاه الحكم صبياً وهو حكم النبوة التي لا تكون الا ذوقاً[٧٢] .

ادعت طائفة من اليهود والنصارى انهم ابناء الله وارادوا التبني لانهم عالمون بآبائهم وقالوا في المسيح انه ابن الله اذ لم يعرفوا له اباً ولا تكوّن عن اب لجهلهم بما قال الله من تمثل الملك لمريم بشراً سوياً وجعله الله روحاً ، اذ كان جبريل روحاً فما تكوّن عيسى الا عن اثنين . فجبريل وهب لها عيسى في النفخ ، فلم يشعروا بذلك ، كما ينفخ الروح في الصورة عند تسويتها ، فما عرفوا روح عيسى ولا صورته وان صورة عيسى مثل تجسد الروح لانه عن تمثل . فلو تفطنت لخلق عيسى لرأيت روحاً عظيماً يقصر عنه افهام العقلاء[٧٣] .

٧٠) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٦:١٢٧ .

٧١) يذكر القرآن قول عيسى : « والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً » اما عن يحيى فالضمير هو الغائب : « والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » .

٧٢) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٦:١٢٧ .

٧٣) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٢:٤٤٩ .

عن ما. مريم ام عن نفخ جبرئيل[٧٤] في صورة البشر الموجود من طين
تكوّن الروح في ذات مطهرة من الطبيعة تدعوها بسجين[٧٥]
لاجل ذلك قد طالت اقامته فيها فزاد على الف بتعيين[٧٦]
روح من الله لا من غيره[٧٧] فلذا احيا الموات وانشا الطير من طين
حتى يصح له من ربه نسب حتى يؤثر في العالي وفي الدون[٧٨]
الله طهره جسماً ونزهه روحاً وصيّره مثلاً بتكوين[٧٩]

واعلم ان من خصائص الارواح انها لا تطأ شيئاً الا حيي ذلك الشيء وسرت الحياة فيه . ولهذا قبض السامري قبضة من اثر الرسول الذي هو جبريل وهو الروح ، وكان السامري عالماً بهذا الامر ، فلما عرف انه جبرئيل عرف ان الحياة قد سرت فيما وطئ عليه فقبض قبضة من اثر الرسول عليه السلام بالضاد او بالصاد اي بملء يده او باطراف اصابعه فنبذها في العجل فخار العجل ، اذ صوت البقر انما هو خوار ، ولو اقامه صورة اخرى لنسب اليه الصوت الذي كان لتلك الصورة كالرغاء للأبل والثواج للكباش والعياء للشياه والصوت للانسان او النطق او الكلام . فذلك القدر من الحياة السارية في الاشياء يسمى لاهوتاً والناسوت هو المحل القائم به ذلك الروح فسمي الناسوت روحاً بما قام هو به .

فلما تمثل الروح الامين الذي هو جبرئيل لمريم عليها السلام بشراً سوياً تخيلت مريم انه بشر يريد مواقعتها فاستعاذت بالله استعاذة بجمعية منها ليخلصها

---

٧٤) جبرائيل الملاك .

٧٥) الذات المطهرة « هي مريم ، من الطبيعة اي من ادناسها وارجاسها ومقتضياتها من اللذات الشهوانية . تدعوها اي الطبيعة التي تدعو مريم اي شأن هذه الطبيعة ان تدعو مريم بسجين اي بجحيم » (شرح الكاشاني) .

٧٦) « فيها اي السنوات . على الف : مبين من علم التواريخ » (الكاشاني) .

٧٧) « اي خلقه الله بذاته لا بواسطة روح من الارواح » (الكاشاني) .

٧٨) « العالي ، اي احياء الموتى من الانسان ، الدون خلق الطير المعروف من الطين » (الكاشاني) .

٧٩) « اي مماثلاً له تعالى بتكوين اي بسبب تكوين الطير » (الكاشاني) .

الله منه لما تعلم ان ذلك مما لا يجوز ، فحصل لها حضور تام مع الله وهو الروح المعنوي . فلو نفخ فيها في ذلك الوقت على هذه الحالة لخرج عيسى لا يطيقه احد لشكامة خلقه بحال امه فلما قال لها : انما انا رسول ربك جئت لاهب لك غلاماً ذكياً ، انبسطت عن ذلك القبض وانشرح صدرها فنفخ فيها في ذلك الحين عيسى عليه السلام . فكان جبرئيل ناقلاً كلمة الله لمريم كما ينقل الرسول كلام الله لامته وهو قوله تعالى : وكلمته القاها الى مريم وروح منه . فسرت الشهوة في جسم مريم فخلق جسم عيسى عليه السلام من ما. محقق من مريم ومن ما. متوهم من جبرئيل سرى في رطوبة ذلك النفخ لان النفخ من الجسم الحيواني رطب لما فيه من ركن الما. ، فيكون جسم عيسى عليه السلام من ما. متوهم وما. محقق ، وخرج على صورة البشر من اجل امه ومن اجل تمثل جبرائيل في صورة البشر حتى لا يقع التكوين في هذا النوع الانساني الاعلى الحكم المعتاد . فخرج عيسى عليه السلام يحيي الموتى لانه روح الهي ، وكان الأحيا. لله والنفخ لعيسى عليه السلام كما كان لجبرئيل والكلمة لله . فكان احيا. عيسى عليه السلام للاموات احيا. محققاً من حيث ما ظهر عن نفخته كما ظهر هو عن امه فكان احياؤه ايضاً متوهماً انه منه وانما كان لله ، فجمع بحقيقته التي خلق عليها كما قلناه انه لمخلوق من ما. متوهم ومن ما. محقق لينسب اليه الاحيا. بطريق التحقيق من وجه وبطريق التوهم من وجه ، فقيل فيه من طريق التحقيق : وتحيي الموتى ، وقيل فيه من طريق التوهم : فتنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله . . .

وخرج عيسى من من التواضع الى ان شرع لامته ان يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[٨٠] وان احدهم اذا لطم في خده وضع الخد الآخر لمن يلطمه[٨١] ولا يرتفع عليه ولا يطلب القصاص منه هذا له من جهة امه اذ المرأة لها السفل حكماً وحساً . وما كان فيه من قوة الاحيا. والابرا. فمن جهة نفخ جبرائيل عليه السلام في صورة البشر فكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى بصورة البشر ، ولو لم يأت جبرئيل عليه السلام في صورة البشر واتى في صورة غيرها من صور

٨٠) سورة التوبة ، ٩ : ٢٨ .

٨١) راجع الانجيل ، متى ، ٥ : ٣٩ .

الاكوان العنصرية من حيوان او نبات او جماد لكان عيسى عليه السلام لا يحيي الموتى الا حين يتلبس بتلك الصورة ويظهر فيها . ولو اتى جبرئيل عليه السلام بصورته النورية الخارجية عن العناصر والاركان اذ لا يخرج عن طبيعية لكان عيسى عليه السلام لا يحيي الموتى الا حين يظهر في تلك الصورة الطبيعية النورية لا العنصرية مع الصورة البشرية من جهة امه فكان يقال فيه عند احيائه الموتى : هو لا هو ، وتقع الحيرة في النظر اليه كما وقعت في العاقل عند النظر الفكري اذا رأى شخصاً سوياً من البشر يحيي الموتى وهو من الخصائص الالهية احياء النطق لا احياء الحيوان ، بقي الناظر حائراً اذ يرى الصورة بشراً بالاثر الالهي ، فأدى بعضهم فيه الى القول بالحلول وانه هو الله بما احيى به الموتى ، ولذلك نُسبوا الى الكفر وهو الستر لانهم ستروا الله الذي احيى الموتى بصورة بشرية عيسى فقال تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، فجمعوا بين الخطا والكفر في تمام الكلام كله لا بقولهم هو الله ولا بقولهم ابن مريم ، فعدلوا بالتضمين من الله من حيث انه احيى الموتى الى الصورة الناسوتية البشرية بقولهم ابن مريم وهو ابن مريم بلا شك فتخيل السامع انهم نسبوا الالوهية وجعلوها عين الصورة وما فعلوا بل جعلوا الهوية الالهية ابتداء في صورة بشرية وهي ابن مريم ففصلوا بين الصورة والحكم لا انهم جعلوا الصورة عين الحكم . . .

فوقع الخلاف بين اهل الملل في عيسى عليه السلام ما هو . فمن ناظر فيه من حيث صورته الانسانية البشرية فيقول هو ابن مريم ، ومن ناظر فيه من حيث الصورة المثلة البشرية فينسبه لجبرئيل ، ومن ناظر فيه من حيث ما ظهر عنه من احياء الموتى فينسبه الى الله بالروحية فيقول روح الله ، اي به ظهرت الحياة فيمن نفخ فيه . فتارة يكون الحق فيه متوهماً اسم مفعول ، وتارة يكون الملك فيه متوهماً ، وتارة تكون البشرية الانسانية فيه متوهمة ، فيكون عند كل ناظر بحسب ما يغلب عليه فهو كلمة الله وهو روح الله وهو عبد الله وليس ذلك في الصورة الحسية لغيره ، بل كل شخص منسوب الى ابيه الصوري لا الى النافخ روحه في الصورة البشرية . فان الله اذا سوى الجسم الانساني كما قال : فاذا سويته ، نفخ فيه هو تعالى من روحه فنسب الروح في كونه وعينه

اليه تعالى وعيسى ليس كذلك ، فانه ادرجت تسوية جسمه وصورته البشرية بالنفخ الروحي ، وغيره ، كما ذكرنا ، لم يكن مثله. فالموجودات كلها كلمات الله التي لا تنفذ ، فانها عن كن وكن كلمة الله ، فهل تنسب الكلمة اليه بحسب ما هو عليه فلا يُعلم ماهيتها ، او ينزل هو تعالى الى صورة من يقول كن فيكون قول كن حقيقة لتلك الصورة التي نزل اليها وظهر فيها . فبعض العارفين يذهب الى الطرف الواحد ، وبعضهم الى الطرف الآخر ، وبعضهم يحار في الامر ولا يدري ، وهذه مسألة لا يمكن ان تعرف الا ذوقاً كأبي يزيد حين نفخ في النحلة التي قتلها فحييت فعلم عند ذلك بمن ينفخ فنفخ وكان عيسوي المشهد .

واما الاحياء المعنوي بالعلم فتلك الحياة الالهية الذاتية الدائمة العلية النورية التي قال الله فيها : او من كان ميتاً فأحييناه وجعلناه له نوراً يمشي به في الناس . فكل من احيي نفساً ميتة بحياة علمية في مسألة خاصة متعلقة بالعلم بالله فقد احياه بها وكانت له نوراً يمشي به في الناس اي بين اشكاله في الصورة[٨٢] .

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا
فإنّا عبدٌ حقاً وإن الله مولانا
وإنّا عينه فاعلم اذا ما قلتَ انساناً
فلا تحجب بانسان فقد اعطاك برهانا
فكن حقاً وكن خلقاً تكن بالله رحمانا
وغذِّ خلقه منه تكن روحاً وريحانا
فاعطيناه ما يبدو به فينا واعطانا
فصار الامر مقسوماً بإياه وايانا
فاحياه الذي يدري بقلبي حين احيانا
فكنا فيه اكواناً واعياناً وازمانا
وليس بدائم فينا ولكن ذلك احيانا[٨٣]

٨٢) « اي بصفات الله واسمائه وآياته وكلماته » (القاشاني) .
٨٣) ابن العربي ، فصوص الحكم ، في شرح القاشاني ، ٢٥٦-٢٧٤ .

انما خص الحكمة النبوية بالكلمة العيسوية وان كانت جميع هذه الحكم نبوته لان نبوته فطرية غالبة على حاله وقد انبأ عن الله في بطن امه بقوله : لا تحزني وقد جعل ربك تحتك سرياً ، وفي المهد بقوله : اتاني الكتاب وجعلني نبياً ، الى وقت بعثه وهو الاربعون سنة لقوله[٨٤] عليه السلام : ما بُعث نبي الا بعد الاربعين ، وقيل انها ليست محسوبة عن النبأ بل ناقصة من نبـأ ينبؤ نبوءا ، يعني ارتفع لارتفاع مقامه من ابناء البشرية ، وبقوله تعالى : بل رفعه الله اليه .

والختم الولاية عليه من خصائص الروح الذي هو نفس روحاني من صفاته الذاتية الحياة ، انه ما يمر على شيء من القوابل ولم يباشره بصورته المثالية الا حيي ذلك الشيء بقوة قبوله واظهر فيه خاصية الحياة واثر من آثارها بحسب تلك القوة ، ولكن اذا حيي ذلك الشيء الذي مر عليه الروح وباشره وسرت الحياة فيه يكون تصرفه اي تصرف الروح وتأثيره بحسب مزاجه اي مزاج ذلك الشيء واستعداده لا بحسب الروح نفسه . فان الروح امر قدسي ليس له حسن معين ولا جثة مخصوصة فاذا كان ذلك الشيء ذا مزاج معتدل قابل الحياة ظهر فيه الحس والحركة وجميع خواص الحيـاة بحسب المزاج المخصوص وان لم يكن ظهر فيه اثر من الحياة بحسب صورته[٨٥] .

---

٨٤) اي محمد .

٨٥) الجامي ، كتاب نقد النصوص ، ٩٥ .